

الفصل الأول

علم الجغرافيا وتطوره

أولاً: تاريخ علم الجغرافيا وتطوره

الجغرافيا علم يدرس الأرض والإنسان وخاصة الظواهر الطبيعية والعلاقة المتبادلة بينهما من تأثير وتأثير في النشاط الاقتصادي والاجتماعي والعمرائي والسبائي. وقد ولدت الجغرافيا كعلم على يد فلاسفة اليونان القدامى، شأنها في ذلك شأن كافة العلوم الطبيعية والإنسانية، فالحقائق الجغرافية لم تتناول بالتصنيف أو المسميات، فقد ظهرت في أول أمرها كشذرات متناثرة في أواخر عصر Homer في القرن التاسع قبل الميلاد. وفي شكل وصفي اقليمي ضمن كتابات المؤرخين كما ظهرت بين كتابات المؤرخ اليوناني القديم هيرودون Herodots (٤٨٤ - ٤٢٥ ق.م)، وذلك قبل أن تظهر تحت عناوين مستقلة كما في كتابات هيكاتوس Hecataeus وصف الأرض.

Description of Earth . (فالأرض المعروفة في ذلك الوقت لم تكن تنعد - كما ظهرت في خريطة شمال أفريقيا وغرب آسيا وأوروبا في كتلة يابسة واحدة بتوسطها البحر المتوسط ويحيط بها المحيط).

يرجع الفضل في إطلاق اسم الجغرافيا Geografiha على مجموعة الحقائق المتعلقة بالأرض Gog إلى «إيراثويس» الذي لقب بأبو الجغرافية حيث يرجع إليه الفضل في الآتي:

(أ) إطلاق اسم الجغرافيا على هذا العلم.

(ب) قياس محيط الأرض باستخدام الرياضيات وزوايا سقوط الشمس على الأرض.

(ج) تقسيم الأرض إلى نطاقين قطبيين. ونطاقين معتدلين ونطاق مداري.

كما يرجع الفضل في تحديد مضمون علم الجغرافيا واهتماماتها إلى كل من (استرابو) و(بطليموس). حيث يرجع الفضل إلى استرابو في تجميع كافة المعلومات الجغرافية التي توصل إليها فلاسفة اليونان القدماء، علاوة على ما جمعه من خلال رحلاته في آسيا الصغرى ودول شرق البحر المتوسط، ومصر، واليونان وجنوب ووسط آسيا. أما بطليموس فقد اهتم بالجانب الفلكي والطبيعي من الجغرافيا، ورسم الخرائط وتحديد خطوط الطول والعرض عليها. فان بطليموس اول من رسم خريطة دقيقة عرفت البشرية من بلاد اليونان القديمة.

فالفصل يرجع اليهما في وضع الأسس العلمية لدراسة الجغرافيا. وكذلك المعرفة الاولى الجغرافية ما يحيط بالبحر المتوسط من يابس باعتبار الأرض هي وطن الإنسانية.

لقد ظلت الجغرافية اليونانية، والكتابات والافكار اليونانية هي المصدر الأساسي لآيه معلومات جغرافية طوال القرون التالية. وحتى عصر الكشوف الجغرافية.

وفي عصر الإمبراطورية الرومانية بعد سيادة السلام واستتباب الأمن في ربوع الامبراطورية، مع سهولة التنقل بين أركانها، مما نشط التجارة، والعلاقات السياسية. بين روما والعديد من الدول والشعوب. الأمر الذي ساعد على تصحيح المعلومات الجغرافية القديمة عن الأرض والشعوب، وإضافة الجديد إليها مما أتى على لسان القادة والتجار والمغامرين. نتيجة مشاهداتهم الشخصية لأراضي المستعمرات الرومانية الجديدة. وفي أواخر الحكم الروماني اشدت الصراعات السياسية والدينية. الأمر الذي غير كثيراً من خريطة الجغرافية البشرية للعالم، والتي لا زالت آثارها في رسم الحدود السياسية لشمال أوروبا - باقية حتى اليوم.

أما بعد عصر الدولة الرومانية، فقد ساد الجهل بين الشعوب الأوروبية فيما يعرف بالعمور المظلمة Darkages. وانتقل الإشعاع الفكري في العالم إلى النصف الشرقي من الكرة الأرضية، حيث بدأت الدولة الإسلامية. في حمل مشعل الحضارة في العالم على مدارسة قرون كاملة أو يزيد.

في عصر الدولة العباسية وبعد انتهاء الفتوحات الإسلامية التي امتدت من حدود الصين شرقاً، وحتى بلاد الاندلس غرباً، ومع بداية القرن الثامن الميلادي بدأ العلماء المسلمين في ترجمة المؤلفات اليونانية. واتاحت لهم فتوحاتهم فرصة الالتحام بالعديد من الشعوب والحضارات، فتجمعت لديهم حصيلة ضخمة من المعلومات الجغرافية أتت على ألسنة القادة والتجار، وعن طريق الرحلات للرحالة العربي. بهدف تحقيق رغبة خلفاء المسلمين من أحكام السيطرة على أطراف الامبراطورية الإسلامية.

ونظراً للتوسع الامبراطورية الإسلامية بدأ علماء المسلمين الاهتمام بالجانب الفلكي من الجغرافيا لفائدتها في تحديد المواقع، وتحديد مواعيد المناسبات الدينية المختلفة. ومواقف الصلاة وغيرها من أمور دينهم ودنياهم. وقد لمعت بين الجغرافيين القدامى أسماء عربية عديدة نذكر منها الخوارزمي. والمقرئزي، والإدريسي، وبقوت الحموي، وابن عبد الحكم. والمقدس. وغيرهم كثيرين. وقد أفاد الأوروبيون في عصر النهضة كثيراً من الكتابات العربية. وترجماتهم عن اليونانية، كما ظلت خرائطهم لا سيما خريطة الإدريسي، أساساً لدراساتهم في تلك الفترة.

في مطلع القرن الخامس عشر (١٤١٦ م) بداية لعهد جديد في مجال الكشف الجغرافية إنشاء الأمير هنري للمدرسة البحرية بالبرتغال. حيث عمل على تخریب العديد من البحارة الذين حملوا عبء الكشف الجغرافية طوال قرون أربعة. وقد تمكن كولبس Columbus في نهاية القرن الخامس عشر للوصول إلى الأرض الأمريكية في الغرب بينما تمكن فاسكو

ديجا ما Vasco De gama من الدوران حول افريقيا، والوصول إلى الهند وجزر الهند الشرقية. عبر المحيط الهندي. حتى إذا ما انتصفت القرن السادس عشر (١٥٥٠) إلا وكان قد تم رسم الإطار العام لكافة قارات العالم فيما عدا قارة اسراليا والقارة القطبية الجنوبية. وقد تحول الأمر في القرون الثلاث التالية (١٥٥٠ - ١٨٥٠ م) إلى عمليات ارتياد لكافة أجزاء القشرة الارضية برياً وبحرياً حيث تمكن بالو Balle من كشف نصف الكرة الغربي. وتمكن ماجلان Magllan من الدوران حول الأرض.. وهكذا ما أن أتى عام ١٨٥٠ إلا وكان قد كشف معظم أجزاء سطح الأرض فيما عدا القطبين: الشمالي الذي لم يتمكن كشفه إلا عام ١٩٠٩ (Robert Peary) والقطب الجنوبي عام ١٩١١ (Roald Ammdsen). وفي عام ١٩٥٤ تم التوصل إلى قمة جبال أفرست (Everest).

أن ما توفر لدى العلماء طول الأربعة قرن الأخيرة (١٥٠٠ - ١٩٠٠) كان كفيلاً يرسم الصورة الجغرافية دون ما خلل، حيث زود العلماء والباحثون خلال تلك الفترة بكل ما كان يتوصل إليه البحارة والمستكشفون مما وفر المادة العلمية اللازمة لرسم الخرائط التي تقدمت كثيراً خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر، مع التوصل إلى مساقط جديدة متباينة لرسمها مثل مسقط مركيتور Mercator الذي رسمه اصلاً للاستخدامات الملاحية وسمى باسمه. وقد تمكن برنارد فارن (Bernard Varenias) عام (١٦٥٠) باخراج أول كتاب جغرافي ظل معمولاً به طوال قرن من الزمان. حيث يعتبر أول كتاب حديث في جغرافية العالم بعد كشف قاراته الرئيسية الخمسة (فيما عدا اسراليا والقطبية الجنوبية التي لم تكن قد اكتشفتا بعد).

أن التطور الهائل في مجال المعلومات الجغرافية والذي بدأ مع عصر الكشوف الجغرافية، قد صحبه تقدم مماثل في العديد من العلوم ذات الصلة بالجغرافيا. كالعلوم الطبيعية، والكيمياء والجيولوجية والטרولوجيا، وعلم المساحة، وعلوم البحار، مع توفر تدريجي للإحصاءات الخاصة بالسكان والتجارة والانتاج. كذا توفرت الخرائط الجيولوجية، ودراسات التربة، إلى جانب توفر العديد من المسميات التي يمكنها أن تنقل إلى التارى صورة دقيقة مثل التلال الجيرية - السهول الفيضية، المدرجات النهرية في الجيمورفلوجيا.

لقد أفادت الجغرافية الحديثة من هذا كله - فالمعرفة متشابكة. والتقدم في أي فرع منها يعين على تقدم الفروع الأخرى، وبذلك أصبحت الجغرافيا ليست فقط أرضاً تجب دراستها، بل وماءً ونباتاً وحيواناً، بل مجتمعاً يتفاعل مع هؤلاء جميعاً من خلال منظومة بيئية واحدة^(١).

ثانياً تعريف علم الجغرافيا ومفهومها

لعل أقدم تعريف للجغرافيا قد اشتق من المعنى الحرفي (لكلمة جغرافيا) المشتقة من الكلمة اليونانية 'geo' ومعناها علم، وكلمة 'graphein' ومعناها وصف. أي أنها تعني وصف سطح القشرة الأرضية. لكن هذا التعريف قد لاقى نقداً من معظم الجغرافيين ومنهم 'كارل ريتز' الألماني (١٧٧٩ - ١٨٥٩) وذلك لعدة أسباب نذكر منها:-

أ- إن هذا التعريف يجعل من الجغرافيا مادة وصفية ويفقد لها الصفة العلمية.

ب- إن الجغرافيا الوصفية تهمل مبدأ السببية Causalite ولا تهتم بالتحليل والتعليل، لأنها تجعل عمل الجغرافيا مقتصرًا على معرفة الظواهر دون أرجاعها إلى الأسباب أو البحث في النتائج.

ج- إذا كانت الجغرافيا قد انحصرت على الحالة الوصفية، لكن تسجيل المعلومات والحقائق ما هي إلا المادة الخام التي يجب أن تتلوهها مراحل أخرى تقوم على التحليل.

د- إن الاقتصار على الوصف فقط يجعل الدراسة الجغرافية شبيهة بدائرة المعارف. (٢)
وهذا الجانب الوصفي يباعد ما بين الجغرافيا وبين أهدافها العلمية.

والتعريف الآخر بأن الجغرافيا علم العلاقات Science des relations فقد انتشر عند الجغرافيين الإنجليز والأمريكيين حيث تركزت أبحاثهم على تفهم العلاقة بين الطبيعة والإنسان. ويرجع هذا التفكير الجغرافي إلى 'استرابون' الجغرافي اليوناني. فانتشر هذا التعريف في النصف الثاني من القرن ١٩. ومع هذا فقد واجه هذا المذهب نقداً واعتراضاً من قبل العالم الجغرافي الألماني 'هنتز' Hettner في عام ١٨٩٥، وذلك لعدة أسباب نذكر منها:

أ- إذا كانت الجغرافيا علم العلاقات فإنها لا تهتم بالظواهر الطبيعية والبشرية معاً، بينما تهتم - في هذا المجال - بالعلاقات. لكن في الواقع لا يمكننا إغفال الظواهر البشرية لأنها النتيجة لتفاعل الظواهر الطبيعية والبشرية مع بعضها البعض، ويدعونا هذا إلى القول بأن الجغرافيا يمكن أن تتحول إلى علم اجتماعي مثلها في هذا المجال مثل "الايكولوجيا البشرية". وبذلك تفقد الجغرافيا صلتها بالعلوم الطبيعية.

ب- إذا اعتبرت البيئة الطبيعية هي العامل الجغرافي، فإن الجغرافيا في هذه الحالة تصبح مجرد دراسة تأثير هذا العامل على الإنسان.

وهناك تعريفات أخرى لعلم الجغرافيا ومنها: الجغرافيا، علم التوزيعات، وعلم الاختلاف الإقليمي، وعلم كوكب الأرض... والواقع أن طبيعة المهنة الجغرافية تنهج مركب حيث

تداخل فيه عدة أنواع منها: أن المنهج الجغرافي يبدأ بتوزيع الظواهر الجغرافية ثم الربط بين هذه الظاهرة والظواهر البيئية للوصول إلى نوعية التفاعل والعلاقة الناتجة عن البيئة والإنسان. وهذا ما يعرف "بالايكولوجيا"^(٣) Ecologie

وبما أننا لا نهتم في التعريفات العديدة ولا الغوص في مناهات جدلية، بل نكتفي بإلقاء الضوء على مفهوم الجغرافيا. فالجغرافيا عبارة عن دراسة للمكان بخصائصه الطبيعية البشرية. والخصائص - أو الظواهر الطبيعية في المكان هي الظواهر التي لم يتدخل الإنسان في وجودها على سطح الأرض.

وتشتمل هذه الظواهر على التضاريس، والمناخ، والغطاء النباتي الطبيعي والحيوان البري. أما الظواهر البشرية فهي التي أوجدها الإنسان بجهده في المكان. وتضم هذه الظواهر البشرية. السكان، ومراكز السكن (قرى - مدن)، وشبكات النقل والمواصلات ووسائلها، وموارد الثروة الاقتصادية، والدولة.

وقد لخص لوكرمان. Lukermann الأهداف الرئيسية للجغرافية في الجوانب التالية.

- ١ - توزيع الظواهر على سطح الأرض.
- ٢ - العلاقة بين الظواهر وغيرها في نفس المكان.
- ٣ - ارتباط هذه الظواهر بالمناطق المجاورة
- ٤ - تأثير هذه الظواهر على مظاهر أخرى.
- ٥ - اختلاف ظاهرة من مكان لآخر.
- ٦ - لماذا توجد بعض الظواهر في منطقة دون الأخرى.
- ٧ - مدى انتشار الظاهرة.
- ٨ - تكرار الظواهر المختلفة.
- ٩ - تحديد المسافة بين ظاهرة وأخرى تماثلها.
- ١٠ - شكل شبكية الانتشار.
- ١١ - كثافة وتجمع الظواهر غير المتصلة.
- ١٢ - موقع تركيز الظاهرة.
- ١٣ - ارتباط نوع النشاط السائد مع السكان.
- ١٤ - التفاعل بين البيئة والإنسان في مكان ومكان آخر.^(٤)

ثالثاً: أقسام علم الجغرافيا: (٤)

يهتم علم الجغرافيا بدراسة سطح الأرض وما عليه من ظواهرات بشرية. ويبدو من هذا التعريف أن الجغرافيا تنقسم إلى قسمين رئيسيين وهما: الجغرافيا الطبيعية والجغرافيا الإنسانية، ويتداخل في كل من هذين القسمين عدة فروع.

أ - الجغرافيا الطبيعية: وتشمل التضاريس (الغلاف الصخري) والمسحطات المائية. وتتعلق دراسة الغلاف الصخري بعلم الجيولوجيا (Geomorphologie) بينما تتعلق دراسة الغلاف المائي بالبحار والمحيطات وأصبح يعرف باسم علم الاوقيانوغرافيا (Océanographie) كما تشتمل الجغرافيا الطبيعية على علم المناخ (Climatologie) الذي يرتبط بعلم الظواهرات الجوية (Météorologie). أما الجغرافيا الحيوية الطبيعية - فتهتم بدراسة النبات الطبيعي والحيوان. وهناك الجغرافيا الرياضية التي تتعلق بالفضاء البعيد والقريب أي (علم الفلك) Cosmographie.

ب - الجغرافيا الإنسانية: وتهتم بدراسة الإنسان والبيئة الطبيعية والعلاقة المتبادلة بينهما. وبصورة أوضح فالجغرافيا الإنسانية تبحث في العناصر المكونة للمجال (espace) الذي يشتمل على المؤثرات الطبيعية، كما تبحث في المجموعات البشرية، التي تقطن في ذلك المجال، التي ينتج عنها أنشطة إنتاجية اجتماعية واقتصادية بحيث أن كلا من الإنسان والبيئة يؤثران ببعضهما. وهذا يدعونا للقول أن الجغرافيا البشرية تهدف إلى دراسة البيئة وأثرها على حياة الإنسان، كما تدرس الإنسان وتأثيره في البيئة وربط العلاقات ما بين المظاهر الطبيعية والبشرية. هذا ويرتبط علم الجغرافيا بظروف تاريخية ومكانية محددة من أجل البدء بدراسة هذه العلاقة وذلك حتى يكون هناك ارتباط ما بين المرحلة التي حاول الإنسان، ولا يزال، أن يتأمل بعوي وإدراك للظواهرات المحيطة به. كما يعمل الإنسان على البحث عن إمكانات البيئة التي يعيش فيها ليلائم ما بين متطلباته الحياتية وطبيعة المكان الذي يعيش فيه.

أقسام الجغرافيا الإنسانية: (٢) وإضافة إلى ما تقدم عن الجغرافيا الإنسانية فتتقسم هذه بدورها إلى عدة فروع وذلك حسب التقسيم الذي اتبعه روكسبي «Roxby» ١٩٣٠ عالم الجغرافيا الإنجليزي.

١ - جغرافيا السلالات البشرية: وتدرس الإنسان من حيث أصله وسلالاته ومميزاته الجسدية ومدى تأثيرها بموامل البيئة. ويتصل هذا الفرع بعلم الإنسان. الاثنتروبولوجيا (Anthropologie).

٢ - الجغرافيا الاجتماعية: وتشتمل على جغرافيا السكان ودراسة كل من الريف والمدن وذلك حسب تقسيم الجغرافي الإنجليزي هوستون Houston عام ١٩٥٣. وإذا كان هذا الفرع يتصل اتصالاً وثيقاً بعلم الاجتماع فإن كل فرع من فروعِهِ يرتبط أيضاً بعدة علوم

أخرى فجغرافية السكان على سبيل المثال المتصلة بجغرافية المدن والقرى فهي مرتبطة بتخطيط الريف والمدن، كما أن التزايد السكاني والتوزيعات البشرية فهي منسلة أيضاً بعمول طبيعية وسياسية واقتصادية. كما تشمل الجغرافيا الاجتماعية والفولكلور وغيرها. كذلك التي تتعلق بالتنظيم الاقتصادي والسياسي لشعبنا.

٣ - الجغرافيا الاقتصادية: يعتبر هذا الفرع من أكثر فروع الجغرافيا الإنسانية وضوحاً وأوسعها ميداناً. وقد ظهر أو استخدم لتعبير (الجغرافيا الاقتصادية) عام ١٨٨٢ على يد الجغرافي الألماني (Gotz جوتز) لتمييزها عن مفهوم الجغرافيا التجارية الذي كان سائداً من قبل حتى ذلك التاريخ. ولهذا يبدو لنا أن (جوتز) واضع الحجر الأساسي للجغرافيا الاقتصادية بمفهومها العلمي الحديث بعكس ما كانت عليه الجغرافيا التجارية التي كانت تعرض ملخصات إنتاج المحاصيل في العالم، حيث كانت عبارة عن جغرافيا وصفية دون أن تهتم بالعمول المؤثرة في إنتاج المحاصيل ونجارتها. هذا وتناول الجغرافيا الاقتصادية دراسة الموارا الاقتصادية في العالم من حيث الإنتاج والتصنيع والاستهلاك والتصدير والاستيراد ثم العمول الطبيعية والبشرية وغيرها من المؤثرات في الموارا الاقتصادية.

٤ - الجغرافيا السياسية: وهي أيضاً من فروع الجغرافيا الإنسانية حيث تناول دراسة الدولة كظاهرة جغرافية لها حدودها وموقعها ومقوماتها البشرية والطبيعية وإمكاناتها الاقتصادية، وتهدف أيضاً إلى إبراز المشاكل السياسية التي تنجم عنها.

وعدا الجغرافيا الطبيعية والإنسانية هناك قسمان آخران من الجغرافيا، وهي الجغرافيا التاريخية والإقليمية، أما الأولى فتهتم بالجغرافيا في العصور الماضية إذ لا تعني كلمة (تاريخية صلة هذه الجغرافيا بالتاريخ، ولكن استخدام هذه اللفظة للدلالة على الماضي فقط. وأما الإقليمية فتهتم بإقليم معين، وتدرسه من جميع جوانبه الطبيعية والبشرية والاقتصادية والاجتماعية والسياسية.

رابعاً: الجغرافيا الحديثة مفهومها ومناهج البحث فيها

لما كان القرن السابع عشر يورخ به مولد العلوم الطبيعية في العالم بصفة عامة. فتد انعكس هذا على علم الجغرافيا، فبدأ جانبها البشري هزبلا باهتا على الرغم من الاهتمام الكبير الذي بذله الجغرافيون والرواد الأوائل. في وصف البشر والمجتمعات البشرية.

إذ ظل مفهوم الجغرافيا قديماً «وصف الأرض» يلقي دائماً بظلاله على اهتمامات الجغرافيين، وقد نشط التركيز على الجانب الطبيعي مرة أخرى في القرن التاسع عشر، كما ظهر في كتابات جغرافي هذا العصر أمثال هاتون (١٧٩٥)، مالتابرن (١٨٠٠)، هامبولت (١٧٩٩)

(١٨٥٩) وكارل ريتز ١٨٥٩ حيث قيسرت الارتفاعات والمنخفضات. ووصف الجروف والوديان. ونوقشت العوامل التي تؤدي إلى تغييرها، بل والأهم من ذلك فسمت الجغرافيا الطبيعية إلى جيورفلوجيا، وجغرافية مناخ ونبات، وجغرافية بحار ومحيطات فل أن يتناول الجغرافيون الجانب البشري كعنصر مستقل من الكل الجغرافي. إلا أنه وعلى أثر ظهور نظرية دارون عن «اصل الأنواع» ثم عن أصل الإنسان فيما بين ١٨٥٩ - ١٨٧٩. بدأ الاهتمام بالجانب البشري من الجغرافية كنتيجة طبيعية لما أثبتته دارون من وجود علاقة ثابتة ومستمرة بين الإنسان من جهة وبيئته الطبيعية من جهة أخرى.

ومع ظهور المدرسة الحتمية، كان لابد من ظهور من يناهضها، ويحد من غلواء أنصارها في ارجاعهم الحقائق البشرية إلى البيئة الطبيعية وحدها، فكان ظهور المدرسة الإمكانية في الجغرافيا Possibilism school أو المدرسة الحديثة وذلك في مطلع القرن الحالي. وسوف نحاول توضيح منهجة الفكر الحتمي والفكر الإمكانية في الصفحات التالية: (١٣)

١ - منهج الحتمية:

ظهر منهج الفكر الحتمي (Déterminisme) في الجغرافيا الإنسانية الحديثة لأول مرة في القرن التاسع عشر واستمر حتى أوائل القرن العشرين متأثراً بنظرية «تشارلز داروين» التي تبحث في نشأة التطور والارتقاء. ويبدأ المنهج الحتمي من الأهمية المطلقة للمعطيات الطبيعية وتأثيرها على سلوك الإنسان ونمط معيشته وأنواع تنظيماته الاجتماعية.

وقبل ظهور هذا المنهج كانت الدراسات الجغرافية تشكل حتى القرن السادس عشر دراسات للمكان الطبيعي الذي كان بدوره الهدف الرئيسي في أبحاث الجغرافيين وذلك بالرغم من تدوين الجغرافيين الإغريق لبعض الملاحظات المتعلقة بالجغرافيا الإنسانية كتصنيف القبائل الأفريقية (في أثيوبيا) تبعاً لأنماط غذائهم (١٤). وبرز من الجغرافيين الأغرقي كلاً من هيبوقراط (القرن الخامس ق.م.) وأريسطو (القرن الثالث ق.م.) حيث وصفنا للأحوال الاجتماعية لسكان الأقاليم الجبلية الباردة وإخارة عند اليونانيين والأثيوبيين (١٥).

إن كل هذه الأفكار قد اختفت في أوروبا خلال العصور الوسطى لاعتقاد السكان بما جاء في التوراة عن الخليفة، إذ اعتبروا اختلافات المناخ والتضاريس وطبائع البشر والتباين فيما بينهم هي من حكمة الله ولا نقاش في ذلك.

✽ ومن بين الجغرافيين والكتاب والفلاسفة المسلمون والعرب الذين اهتموا بدراسة العلاقة بين المكان (البيئة) وجسم الإنسان وطبائعه. كان أبرزهم ابن خلدون (١٣٣٢ - ١٤٠٦) في مقدمته المشهورة التي أوضح فيها العلاقة بين حوادث التاريخ والجغرافيا محدداً العوامل الجغرافية التي تؤدي إلى قيام الحضارة وارتقائها وتلك التي تؤدي إلى تدهورها.

وما هو يتحدث عن «اختلاف أحوال العمران في الخصب والجوع وما ينشأ عن ذلك من آثار في أبدان البشر وأخلاقهم، ويضيف: «لقد بينا أن المعمور في هذا المنكشف من الأرض هو وسطه لإفراط الحرّ في الجنوب منه والبرد في الشمال. ولما كان سكان السودان ساكنين في الأقليم الحار فاستولى الحرّ على أمزجتهم وكان له تأثيراً على أبدانهم...» كما يقول: «إن الأقليم المعتدلة ليست كلها يوجد فيها الخصب وتجد الفاقدين للحبوب من أهل القفار أحسن حالاً في أجسادهم وأخلاقهم من المنغمسين في العيش، فالوانهم أصفى وأبدانهم أنقى وأشكالهم أحسن وأخلاقهم أبعده عن الانحراف:»^(٦٦).

وقد أسهب ابن خلدون في الحديث عن البدو والبدواء والعلاقة بينهم وبين الحضرة وذكر في هذا المجال: «إن البدو أقدم من الحضرة وأن البادية أصل العمران». والجدير بالذكر أن آراءه عن البلدان والمدن والأمصار شيقة بحيث لا تبعد عن الآراء الحديثة في الجغرافيا. كما أوضح تأثير المناخ على طبائع البشر وفسر بذلك الميل الملحوظ لدى سكان السودان إلى الرقص بمميزات «الخفة والطيش» التي يتصف بها هؤلاء بسبب مناخهم الحار والرطب الذي يبعث على الكسل.

* إن الإنسان في رأي الحتميين سلبى يعيش في بيئة ذات تضاريس ومظاهر طبيعية خاصة، ومناخ معين وغطاء نباتي وعالم حيواني يميز عن غيره، وكل هذه العوامل تؤثر في الإنسان تأثيراً كبيراً، وعليه أن يتكيف مع بيئته ويعيش على ما تقدمه هذه البيئة، وأن تكون حياته الاجتماعية انعكاساً لهذا التكيف.

وعدا ابن خلدون فهناك ابن خرداذبة ودراسته للأرض في كتابه: «المسالك والممالك»، ثم اليعقوبي (القرن العاشر م.) الذي درس في كتابه «أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم» النواحي الاقتصادية والتضاريسية. وابن حوقل (٩٧٧) ربط ما بين المناخ والظواهر الجغرافية وتأثيرها على الإنسان في كتابه «صورة الأرض». أما الإدريسي (١١٠٠ - ١١٦٦) فبحث الاحتكاك بين الحضارتين الإسلامية والمسيحية في كتابه «نزهة المشتاق في اختراق الآفاق عام (١١٥٤) وبعده جاء «أبي الفداء» (١٢٧٣ - ١٣٣١) وكتابه «تقويم البلدان» وياقون الحموي (١١٧٨ - ١٢٢٨). والقزويني ١٢٠٣ - ١٢٨٣. وجغرافية الرحلات عند ابن بطوطة وابن ماجد وغيرهم..

ومن الذين بحثوا في الحتمية أيضاً جان بودان (١٥٣٠ - ١٥٩٦) ومونسكيو (١٦٨٩ - ١٧٥٥). أما «بودان» فقط ربط بين المناخ وطبائع البشر وحاول أن يبرهن في كتابه «الكتب الستة لدولة خيرة» (١٥٧٦) بأن شكل الدولة يجب أن يتطابق مع صفات البشر المختلفة وبين أثر البيئة في طبائع الناس وتفكيرهم، وذكر أن سكان المناطق الجنوبية الحارة لهم القدرة على

التمييز بين الحق والباطل ولكن من طبائعهم الأخذ بالشار والمكر، بينما يمتاز أهل المناطق الشمالية الباردة بالقسوة والمخاطرة. أما أهل المناطق المعتدلة فأكثر فطنة من أهل الشمال وأكثر نشاطاً من أهل الجنوب، ويتصفون دون غيرهم بالقدرة على القيادة وبذلك يعتبر «بودان» أسبق من مونتسكيو في تبيان أهمية البيئة في تشكل القوانين والعادات والمعتقدات والأحداث الاجتماعية بين البشر (٧).

وبالنسبة إلى «مونتسكيو» فقد كان متحمساً لمبدأ الحتمية الجغرافية، إذا حاول الربط بين المناخ والتربة وطبائع البشر، فاعتبر الإنسان كائنًا يقابله المناخ والتربة. وكان يعتبر أن المناخ لا يشمل على غير الحرارة، وأن التربة في نظره تقتصر على الخصوبة والجذب. وعلى هذه الركائز حاول مونتسكيو تحديد صفات البشر وأخلاقهم. وبذلك جاءت دراسات لهذه الأسس ولصفات البشر سطحية وعامة، فأطلق - على سبيل المثال - عبارة طبيعة الأرض دون أن يحللها، ومما قاله في هذا الصدد: «أن سكان المناطق الباردة أكثر قوة وشجاعة وأقل رية من الحارة الذين يتصفون بالضعف الجسمي والكسل والسلبية»، بينما نجد أنه يعتبر التربة وتأثيرها على حياة الإنسان أقل من أثر المناخ، ومع هذا فأثرها واضح في شكل الحكومة - حسب رأيه - حيث يقول: توجد الممالك عادة في المناطق ذات التربة الخصبة، بينما تقوم الجمهوريات في الأرض الفقيرة».

وقد دعا مونتسكيو في كتابه «روح الشرائع» لاكتشاف نظام الحكم من طبيعة المكان (أي البيئة) وليس من خارجه.

كما نظر مونتسكيو في استنتاجاته المتعلقة بالمناخ وتأثيره على طبائع البشر وعاداتهم حيث ربط بين المناخ الحار والرق والعبودية، كما ربط الشجاعة بالبيئات الباردة. ولكن الواقع تبين عكس ذلك لأحد الجغرافيين الفرنسيين في القرن العشرين، خاصة في جبال الألب والبيرنه الفرنسية، حيث توجد عدة أنماط مختلفة من المعيشة في بيئات متشابهة (٨)، وهذا بعكس ما قاله مونتسكيو بأن البيئات الطبيعية المتشابهة لها نفس التأثير على أنماط الحياة البشرية.

وقد تطور منهج الحتمية في العصور الحديثة حيث بحث العالم الألماني الكسندر همبولدت (١٧٦٦ - ١٨٥٩) في العلاقة بين الإنسان وبيئته، وبأن للبيئة أثر في حياة الإنسان، لكن الأدلة لم تكن كافية في رأيه لإيجاد نظرية تؤكد العلاقة بين الأرض والإنسان كقوله على سبيل المثال: «أن صفاء السماء في الجزيرة العربية وجه ولا شيك انتباه السكان في جاهليتهم الأولى إلى ملاحظة النجوم» (٨). وقد توصل همبولدت فيما بعد إلى نتيجة وهي أن الإنسان قادر على الهروب من القوى الطبيعية وخاصة المناخ وذلك بفضل قدرته العقلية.

لكنه أوضح أخيراً أنه لا يمكن البحث في الظاهرات البشرية في إطار منفصل عن الظاهرات الطبيعية لأنهما مرتبطتان مع بعضهما ويكوّنان صورة واحدة متكاملة.

أما داروين (١٨٠٩ - ١٨٨٢) فقد أوضح في الحتمية بأن الصراع والتنافس الاقتصادي - الاجتماعي بين الفئات والأفراد من أجل التكيف مع النظام الاقتصادي الراسخ أصبح صراعاً وتنافساً بيولوجياً - اجتماعياً بين الجماعات. ويستند هذا الصراع على قانون الاختيار الطبيعي بين الأنواع التي تهدف إلى التكيف مع المكان الطبيعي الذي تعيش فيه من أجل ضمان بقائها، وقال بما معناه: «إن هناك كفاحاً من أجل البقاء بين أفراد النوع الواحد» وأكد وجود تغيّر فردي في داخل النوع، وأن الأفراد الأكثر ملاءمة يكون لهم حظاً أوفر على البقاء، كما أن بعض هذه التغيرات يتقلل للخلف ويحتفظ بها في الأجيال التالية، وهذا هو مبدأ الانتخاب الطبيعي^(٧). وبصورة أوضح فإن العلاقة بين الكائن الحي والبيئة هي علاقة ملاءمة وتكيف، وأن هذه الملاءمة عملية مادية حتمية لا يملك الكائن الحي إزاءها شيئاً بل إن البيئة هي التي تختار الأفراد الذين تتلاءم صفاتهم مع ظروفها اختياراً طبيعياً وترك غيرهم للفناء.

كما بحث دي مولان (De molins) بين (١٩١٠ - ١٩٠٣) في تنوع الشعوب واختلاف السلالات حيث قال: «إن الطريق الذي سلكته الجماعات البشرية هو الذي خلق السلالات وهو الذي خلق الطراز (النمط) الاجتماعي». ويعود «دي مولان» ليؤكد مرة ثانية: أن تاريخ النوع البشري لو أنه بدأ من جديد، وظل سطح القشرة الأرضية دون تغيير فإن التاريخ سيعيد سيرته الأولى. كما قد تكون هناك اختلافات ثانوية عديدة وقد تغير بعض أساليب الحياة العامة، ولكن نفس الطرق ستنتج نفس الأنماط الاجتماعية.

ويبدو من ذلك أن «دي مولان» تجاهل عامل السلالة والوراثة وتأثيرهما على حياة الجماعة البشرية وذلك لانخازه الأسرة كمثل دون الاهتمام بباقي العناصر المعقدة التي تؤثر في النظام الاجتماعي^(٩).

※ وبالنسبة إلى فردريك راتزل (F.Ratzel) (١٨٤٤ - ١٩٠٤) الألماني فقد بحث في كتابه «جغرافية الانسان» Anthropogeographie بين عامي ١٨٨١ - ١٨٩٢، والجغرافيا السياسية (١٨٩٧) نفاهاً سطح الأرض وعلاقتها بالإنسان وفي نشاط الإنسان البيئي وكيفية استغلال الأرض مؤكداً في معظم دراساته حتمية القوى الطبيعية على نشاط الإنسان. كما أسرف «راتزل» في إخضاع الإنسان ونشاطه البشري لتأثيرات البيئة الطبيعية، ولذا يعد الرائد الأول في منهج المدرسة الجغرافية الحتمية البيئية. وكذلك أضاف أن: «للبيئة الأثر الأكبر في حياة الإنسان الذي يخضع لسلطانها، وتتحدد نظم حياته الاقتصادية والاجتماعية تبعاً لما تملبه عليه ظروفها». ونظر راتزل إلى الحقائق الإنسانية على الأرض، ليس باعتباره فيلسوفاً أو

مؤرخاً أو اقتصادياً أو أثولوجياً بل باعتباره جغرافياً، واستطاع أن يميز العلاقات العديدة المتغيرة والمعقدة بين الحقائق البشرية والحقائق الطبيعية من موقع ونضاريس ومناخ ونبات. وقد سجل ملاحظاته عن السكان في العالم الذي يعملون على سطح الأرض، باحثين عن الرزق وصانعين للتاريخ؛ ولاحظ كل ذلك بعين العالم الطبيعي الأصيل (١١).

كان الإنسان في نظر «راتزل» التاريخ الأخير للتطور باعتباره عملية أساسها الاختيار الطبيعي للأنواع حسب قدرتها على ملاءمة نفسها بالبيئة الطبيعية. وقال «راتزل» أن الإنسان من صنع البيئة الطبيعية وأن القوى الطبيعية المحيطة به هي التي تشكله بحيث لا ينجح الإنسان إلا بقدرته على التلاؤم مع تلك القوى. وهكذا انصيفت آراء راتزل بالصيغة الحتمية الصرفة.

هذا، وقد عالج «راتزل» في كتابه (جغرافية الإنسان) أيضاً ثلاثة موضوعات هامة وهي: أنماط وتوزيع البشر على أساس العدد والسلالة والقومية واللغة والدين، ثم تفسيره لهذه التوزيعات برجوعه إلى عناصر البيئة الطبيعية، وأخيراً الآثار التي تتركها البيئة على حياة أفراد المجتمع.

وفي مجال الدولة والمجتمع يرى راتزل أنه لكي نرفع من مستوى الجغرافيا السياسية، مهمة لا يمكن إنجازهها بغير البحث المقارن في العلاقات بين الدولة وسطح الأرض، فاعتبر أن الدولة كائن عضوي أو هي قطعة من البشر وقطعة من الأرض. وأكد أن حدود الدولة مؤقتة وهي تشير إلى حدود الإمكانيات المرحلية للطاقة الحياتية للمجتمع وهي بذلك عرضة للتقدم أو التراجع. بينما أهمية موقع الدولة تتركز في تسهيله اجتياح المكان إذا كانت بحرية أو جزرية أو مغلقة. أما المكان فله تأثير حسب ما يوفره للمجتمع من مناخات و ثروات طبيعية تحدد غنى المجتمع وقوته وتطلعاته.

كما شرح أيضاً القوانين الطبيعية التي تتحكم في نمو الدولة وتكوينها باعتقاد أن المجتمع هو الوسيلة التي عن طريقها تصبح الدولة وثيقة الصلة بالتربة، واعتبر أن علاقة المجتمع بالتربة تؤثر في الدولة في كل طور من أطوارها. وأوضح أن الدولة كائن حي في حركة دائمة تمتد في المجال حتى يبلغ حدوده الطبيعية ثم يتعدها إن لم يجد من جيرانه مقاومة قوية ترده إلى حدوده، وأن الدافع في التوسع يبرز في رغبة الإنسان غزو الأرض والاستيلاء عليها لإنشاء دولة كبيرة.

وقد استندت النازية فيما بعد إلى هذه النظرية فطرحت نفسها أيديولوجية لكل الأمة الألمانية (الشعوب التي تتكلم الألمانية في عدة دول أوروبية)، وذلك من أجل التحول عن صراعاتها الداخلية إلى الصراع بينها وبين الأمم من أجل الوصول إلى المكان الذي يجعلها قوية ويمجد بقاءها وموقعها بين الدول الأخرى.

واعترفت آين سميل، (الأميركية) بتعصبها للحتمية، «أن الإنسان هو نتاج سطح الأرض، وهذا لا يعني فقط أنه ابن الأرض، تراب من ترابها، بل أن الأرض ربته وأطعمته وواجهته بالمشاكل، ووجهت أفكاره، وجابته بالصعاب التي قوت جسمه. وصقلت قدراته. انها تخللت عظامه ولحمه، وروحه وعقله، ففي الجبال أعطته ساقاً ذات عضلات قوية لتسلق المنحدرات، وعلى السواحل تركت عضلات ساقه ضعيفة، ومنحته عوضاً عن ذلك صدرًا واسعًا، وذراعاً قوية يضرب بها المدافع»^(١١).

ب - منهج الإمكانيية الجغرافية Possibilisme ظهور الإمكانيية ومفهومها:

رفض بعض العلماء الاعتراف بأن البيئة الطبيعية هي المسؤولة عن الاختلافات العقلية والتنسبية الموجودة بين الجماعات البشرية التي تعيش معاً على سطح المكان الطبيعي الواحد، وكان دوركهام Durkheim قد أنكر على راتزل دراسته لكل تأثيرات البيئة الطبيعية في الحياة الاجتماعية. والأدلة الواضحة التي تنقض نظرية راتزل هي: أن قبائل (الأونا) التي تسكن منطقة أرض النار - تقع عند مضيق مجلان أقصى جنوبي الأرجنتين - وقبائل (الأسكيمو) - التي تسكن في منطقة الدائرة القطبية شمالي كندا - تعيش في مناطق ذات مناخات متشابهة، بينما تختلف كثيراً من حيث مستوى تكيفها وأساليبها التقنية. فأفراد (الأونا) يعيشون في حياة بدائية جداً وهم نصف عراة، بينما يعيش أفراد (الأسكيمو) في مستوى عال نسبياً في تصنيع المواد الطبيعية المتوفرة في بيئتهم من أجل تأمين الملابس والسكن.

كما أن الأسكيمو في أميركا الشمالية لا يتشابهون في حياتهم الاقتصادية والاجتماعية مع القبائل التي تعيش منطقة (التندرا) في آسيا وأوروبا، وسكان السهول في آسيا يختلفون بنمط حياتهم عن سكان السهول في أميركا الشمالية.

ثم انتقد الامكانييون (راتزل) عندما عزل البيئة الطبيعية عن التاريخ، ومثال ذلك انكلترا التي لم تكن قادرة على التربع على عرش البحار، قبل الاكتشافات الجغرافية في أميركا وجزر الهند الشرقية والهند، وقبل بروز إمكانيية الاستعمار الدولية وبدء الصناعة وقبل تواجد هذه الشروط كانت بريطانيا العظمى تعيش على القطاع الزراعي وتربية الماشية فقط، لكن خصائص الموقع الجغرافي للمكان يؤمن نتائج إيجابية أو سلبية تبعاً لقدرة ما يتوفر لدى الجماعات البشرية - القاطنة له - من ظروف وامكانيات حضارية توفّر لهم الانفتاح على عوالم خارجية فتجعل المكان متطوراً أو متخلفاً.

إن الاختلافات في الحياة وعدم التشابه في الأنماط المعيشية للمجموعات البشرية في البيئات المتشابهة مناخياً، إنما تعود إلى طبيعة الإنسان ومقدرته الجسمية ومستواه الفكري وتنظيمه السياسي والاقتصادي والاجتماعي ومتطلباته بل ورغباته الحياتية.

وبالنسبة إلى «لوسيان فيفر Lucien Febvre» فيعتبر من أعنف الذين هاجموا وانتقدوا الحتميين - بعد دوركهايم - وقدّم عدة براهين تبيّن سذاجة وضيق أفق المنادين بالحتمية، فذكر: «أن الظروف الجغرافية تختلف في المنطقة الواحدة من مجموعة بشرية وأخرى»، فعلى سبيل المثال قد تستفيد المدينة وهي في دور التكوين من بيئة منعزلة محصورة تجد فيها الأمان، ولكن نفس تلك البيئة وبنفس الظروف التي تميّز بها والتي كانت من قبل ذات فائدة كبيرة في مرحلة سابقة، قد تصبح عائقاً لها في وقت آخر مثال: مدن مصر واليونان وفينيقيا فكل من كانت تتمتع بشيء من العزلة مكنتها من اكتساب مميزات الخاصة في بيئة آمنة، وبعد اكتمال نموها لم تصبح العزلة ميزة لها وبنفس الفائدة التي توفرت للمدينة من قبل وقد انتهى «فيفر» فيما بعد إلى نتيجة بأن البيئة الطبيعية لا يمكن أن تستأثر بالسيطرة على الإنسان وعلى تفكيره وعقله وتوزيعه وأنماط حياته، ولا يمكن أن يصبح الإنسان عبداً يأتمر بإشارة منها فبوجه إلى المكان الذي ترتبته هي، إذ ليس هناك ضروريات، بل توجد هناك إمكانيات، والإنسان هو سيد هذه الإمكانيات يختار منها ما يشاء. ويضيف «فيفر» بأن الإنسان هو الذي يلعب الدور الأول في مسرحية العلاقات الدائمة والوثيقة بينه وبين الطبيعة، ويستمر في استخدامها فيتدخل فيها لجعلها تخدم أغراضه. أما الذي يؤثر فيه فهو قوة داخلية، وهي معروفة عند الجميع، أنها قوة مصالحة^(١٢).

هذا، ويستدل من انتقادات «فيفر» للحتمية الجغرافية أن المدرسة الإمكانية لا تنكر أثر الظروف الطبيعية (البيئة) في حياة المجتمعات، ولكنها في الوقت ذاته ترفض أن تكون العلاقة بين الإنسان والبيئة علاقة حتمية، وتؤكد حرية اختيار الإنسان من إمكانيات عديدة، يختار منها ما يشاء، وتؤكد أيضاً استجابة الإنسان لظروف البيئة ولكن ليس لكي يكون خاضعاً لها^(١٣).

* أما الإنسان في نظر «الإمكانية» فهو عامل جغرافي يسهم في كل مكان بنصيب كبير في تعديل سطح القشرة الأرضية وتغييره. ومهمة الجغرافي هي في دراسة مظاهر المكان المتغيرة بفضل الجهود البشرية المتوالية، وأن يظهر ما يقوم به الإنسان من جهد نحو تهئية البيئة لسد حاجاته والملائمة مع مقتضياتها. كما أن عناصر البيئة عديدة ومتنوعة، والإنسان هو الذي يختار من هذه العناصر ما يلائمه ويستغله كما يشاء تبعاً لحاجاته وقدراته العقلية ومهارته التكنولوجية، وأن الإنسان ليس بحيوان سلبي يخضع لظروف البيئة. إذ أن التربة

الخصبة - مثلاً - ليست هي التي تدفع الإنسان قسراً إلى استغلالها في الزراعة. كما أن الصعوبات والعقبات التي وضعتها البيئة الطبيعية أمام الإنسان لم تقدر أن تمنعه من التفكير في التغلب عليها، فعمل على إقامة الجسور، وشق الانفاق، وأقام المنشآت المتعلقة بأعمال الري، وقطع الغابات، وحوك السهول إلى حقول للزراعة، وضبط مجاري الأنهار، وتنظّم فيضاناتها، واستتبت نباتات جديدة لتلائم أجواء لم تكن تنمو فيها من قبل (٢).

كما أن الإمكانيين لا يقتصر تفكيرهم على جعلهم أعمال الإنسان ذات شأن عظيم، بل يؤكّدون أهمية نشاط الإنسان، وهم لا ينظرون إلى الإنسان بأن كائن سلمي بل ينظرون إليه باعتباره قوة ذات نشاط فيؤثر في البيئة وفي تغييرها، وفي هذا الصدد يقول «فينر»: (إن الإنسان عامل جغرافي... وفي كل مكان يساهم بنصيب في تغيير وجه سطح القشرة الأرضية ويكسبه ملامح جديدة...). لذا يمكننا القول أن الإنسان عامل من أقوى العوامل التي تشكل وجه الأرض، وهذا هو الدور الذي يلعبه الإنسان في الجغرافيا (١٢).

وقد بحث في نشاط الإنسان، وعلاقته بالبيئة، عدد كبير من العلماء منهم: روكسي وفليز (بريطانيا) (الفرنسي) وبومان (الولايات المتحدة) وويكوف (روسيا) وفريدريك (ألمانيا). حيث اهتم (سور) (الفرنسي) بالنواحي البيولوجية والاجتماعية، ليصل أخيراً إلى التوازن البيولوجي - الاجتماعي، مبتعداً عن التاريخ نسبياً بعكس راتزل الذي لم يهتم بالتاريخ أبداً (١٤).

أما فيدال دي لابلاش Vidal de la Blache الفرنسي (١٨٤٥ - ١٩١٨) فيعتبر مؤسس الجغرافيا الحديثة، بل ورائد المدرسة الإمكانية، وكان قد اعترض على حتمية «راتزل» وركّز اعتراضاته على الذين ينطلقون من عناصر البيئة لتفسير ما يلاحظونه في صفات البشر. وأوضح «فيدال» عن رأيه في الإمكانية، بأن الإنسان ليس عبداً للبيئة، كما نادى به الحتمية من قبل. بل يختار من إمكانات البيئة ما يراه مناسباً لمستواه الحضاري والتقني. وأن أنماط نشاطه الاقتصادي على سطح القشرة الأرضية هي نتيجة تفكيره ومجهوده. وبحث في كتابه: «مبادئ الجغرافيا البشرية Les principes de géog. Humaine عام ١٩١٢، عن السكان من حيث توزيعهم وأنواع العمران ووسائل الإنتاج والنقل والمواصلات.

* وعلى العموم تركز الإمكانية على مفاهيم متعدد ومنها المستوى التقني الذي يشتمل على الخبرة من خلال العمل الإنساني الطويل، كما تركز على الشروط التاريخية التي تحدّد للإنسان ما تقترحه عليه الطبيعة من إمكانات، وتشتمل أيضاً على المعطيات الطبيعية التي تحدّد أنواع الإمكانات التي تقدمها الطبيعة ثم العلاقات الاجتماعية كالعادات والتقاليد، التي تعتبر هامة في توزيع السكان وتجمّعهم.

عبر «فيدال» عن الدول الذي ينبغي أن يوكل إلى الإنسان بوصفه عاملاً جغرافياً سلبياً وإيجابياً في نفس الوقت. وبما أن النشاط البشرية يعمل على تعديل الظواهر العضوية وغيرها.. على سطح القشرة الأرضية، فإن الإنسان نراه، حسب رأي «لابلاش» يستخدم الوسائل العضوية وجميع القوى الفاعلة التي تشمل عليها أحوال البيئة التي يعيش فيها - وذلك عندما يريد تغيير معالم سطح المكان الموجود فيه مثل (ما ينتج عن تحلل التربة بواسطة الحرارة أو المياه أو غيرها (كالرياح).. لهذا نجد «لابلاش» يعتبر الإنسان شريك للطبيعة في دورها(١٥).

وبما أن الإمكانين يتادون بتأثير الإنسان على البيئة وسيطرته عليها نسبياً، لكن الإنسان ليس لديه الحرية الكاملة في تغيير بيئته الطبيعية إذا ما استمرت أن تضع أمامه حدوداً لا بد أن يجتازها، وذلك في المجال الذي يكون نادراً بالمياه التي لا تيسر للإنسان الاستقرار وتؤدي إلى الترحال - خاصة في فترة التخلف من حياة الإنسان. كما أن المناطق الجبلية العالية، والقطبية المتجمديق، أو غيرها من المناطق الرملية المتحركة فإن الإنسان مهما بلغ من تقدمه التكنولوجي فلا يتمكن من أن يجعل مثل هذه المناطق مراكز لاستقرار الجماعات - عدا البعثات العلمية التي تعيش في أجواء خاصة ولفترة مؤقتة. وعدا ذلك فالبيئة تفرض إلى حد ما أسلوباً ونمطاً معيناً من المعيشة والحياة، بحيث أن المناطق الباردة جداً أو الجافة كثيراً لا تسمح للإنسان بقيام الزراعة مثلاً، فتفرض عليه نمطاً معيناً من المعيشة كالصيد والقنص. كما أن الإنسان المتخلف هو بعكس الإنسان المتحضّر (المتقدم تقنياً)، بحيث أن الأول هو أكثر خضوعاً للبيئة، بينما الثاني يمكنه التعديل النسبي في البيئة الطاردة للحياة كي يتلاءم معها.

فالمشكلة إذن هي في تكيف الإنسان مع البيئة، وقدرته على استغلال ما يتوفر فيها من موارد، ومدى الاستجابة لما تطلبه من الإنسان ليحدث الانسجام بين عناصر البيئة والإنسان الذي يعمل على استغلال هذه العناصر.

ولم يهمل الامكانيون تأثير العادات والتقاليد ودورهما في نشاط الإنسان وأعماله. فنمط التفكير والآراء الموروثة قد تعمق نشاط الإنسان وتقدمه بنسبة لا تقل عما تسببه البيئة من معوقات مثل: تقديس الهنود للابقار بينما المجاعة تفتك بالألوف منهم

وفي مجال توزيع السكان، اهتم «فيدال دي لابلاش» الفرنسي بدراسة الكثافة السكانية وتوزيع البشر والظروف التي تدعو إلى ظهور التجمعات السكانية الكثيفة في مكان ما دون الآخر.

أما ماكس ديريو Max Derruau^(١٦) الفرنسي فقد بحث في العناصر الرئيسية التي تتضمنها نظرية غط الحياة (وهي نظرية فيدال دي لابلاش) مثل التقنيات والشروط الطبيعية ثم العادات والعلاقات الاجتماعية لتنظيم نشاطات المجتمع والشروات، وأخيراً العناصر

الروحية كالطقوس والشعائر الدينية التي تهتم بتحليل أسس «المجتمعات القبلية المغلقة»
بكونها تبدأ من نقطة واحدة وهي أن جميع الأفراد متشابهون في السلوك الاجتماعي ولا
يوجد لديهم أية علاقات تتعلق بتقسيم العمل فيما بينهم بحيث أنهم يقومون بنفس
النشاطات ويواجهون نفس الشروط المحيطة ببيئتهم.

وفي الولايات المتحدة عبّر (بومان) Bowman عن تأثير العادات والتقاليد الموروثة على
حضارة المجتمع البشرية التي تؤدي أحياناً إلى سرعة زوالها.

أما في إنجلترا فبحث كل من فليور Fleur وروكسي Roxby عن أن التأثير المتبادل بين
الإنسان والبيئة هو محور الدراسة البشرية التي يجب أن تنهج للدراسة الجغرافيا الاجتماعية
والاقتصادية.

تطور منهج المدرسة الإمكانية

لقد عرفنا الاتجاه العام الذي ظهر فيه التفكير الجغرافي في النصف الأول من القرن
العشرين، لكن هذه الأفكار، المتعلقة بالإمكانية الجغرافية، تطورت من حيث الفصل والتمييز.
بين الجغرافيا الطبيعية والبشرية عامة، وتميّز المظهر الحضاري وما يتصل به من دراسة
الجغرافيا الحضارية المتعلقة بالإنسان والأرض. ويتضمن المنهج المتطور للإمكانية الجغرافية
قسمان: الأول: وهو دراسة الإنسان والمسكن، والنقل ووسائله، والانتاج الاقتصادي، ولا
سيما الاستغلال الاقتصادي للمحيط الطبيعي، ثم المظاهر المادية الناتجة عن تفاعل الإنسان مع
البيئة. ويتصل بهذه المظاهر المادية النواحي الحضارية والسياسية، وهذه تعتبر جزءاً لا يفصل
عن الاستقرار البشري.

أما القسم الثاني من دراسة الإمكانية الجغرافية فيشتمل على دراسة المناخ ومظاهر
التضاريس المتنوعة والتربة والمياه والنبات وعلاقة الإنسان بهذه العناصر الطبيعية وتأثيرها
المتبادل. لكن هذا التقسيم كان نتيجة التخصص الدقيق الذي رافق التقدم العلمي السريع،
وأدى هذا بدوره إلى فقدان وحدة الجغرافيا التي نادي بها «فيدال دي لابلاش» لأن هناك
ظواهر طبيعية نشأة لكن الإنسان أدخل عليها تعديلات متعددة (كزراعة التربة مثلاً) ومن
ثم فالظواهر المادية بقسميها الطبيعي والبشري هي العناصر الرئيسية للوحدة
الجغرافية، والتي من الواجب على الجغرافي ألا يهمل أي عنصر من عناصرها. ومن هنا يبدو
أن الجغرافيا البشرية تدرس العلاقات المتباينة التي تدخل غالباً في اختصاصات علوم
مختلفة. وذلك لأن هذه الجغرافيا عندما تدرس ظاهراً ما لا تدرسها بمعزل عن غيرها
وإنما تتم الدراسة من خلال كل ما يرتبط بها وما ترتبط به من عناصر مهما تنوعت.

هذا. وقد تطورت الامكانية الجغرافية عند الجغرافي الفرنسي الشهير المعاصر بيير جورج (Pierre George) الذي يعتبر أن العلاقات العضوية المتعلقة بعناصر وظواهر الانتاج والاستهلاك هي التي ترشدنا إلى معرفة البنية البيئية والاجتماعية. وهي التي تحدد أسباب التوازن والفروقات فيما بينها. واعتبر أن الإنسان هو محور الاهتمام للباحث الجغرافي من ناحية الانتاج والاستهلاك، وأن دراسة عمليتي الانتاج والاستهلاك هي دراسة الأنظمة التي تنظّم هاتين العمليتين وقدرتها على تأمين التوافق والابتعاد عن التعارض في العمليتين معاً (١٧).

لذا يمكننا تعريف منهجة (بيير جورج) في الجغرافيا البشرية بأنها مادية تاريخية طبقية تعطي للنظام الاجتماعي والأتاجي الأهمية الرئيسية لمعرفة أسس البيئة الجغرافية (مكان فيه انتاج اشتراكي، انتاج رأسمالي، انتاج تابع، انتاج صناعي، زراعي... الخ).

إن اعتماده على هذا المنهج يعترف بوجود قوانين تاريخية تجعله دقيقاً وكثير الدقة في تحليله كجغرافي يقوم بدراسة العلاقات الأتاجية والاجتماعية في البيئة.

ومجمل القول لما كانت عناصر البيئة الطبيعية ترتبط مع بعضها البعض بعدد من الضوابط النيزيائية المحددة، تجعل من سطح الأرض وحدة طبيعية واحدة (كارتباط الغطاء النباتي والحيواني، بظروف السطح والمناخ). ولما كان الإنسان. كما أكدت نظرية دارون - ليس أبداً مخلوقاً فريداً، مشرداً عن باقي عالم الأحياء. (حيث هو مثلها يعيش بواسطة شبكة من العلاقات تربطه ببيئته الطبيعية، ويوحد بين أفرادها، في ذات الوقت، حاجاتهم الأساسية الواحدة كالمأوى والملبس والطعام) كانت الوحدة البشرية لسطح الأرض، ولما كان اعتماد الإنسان في توفير هذه الاحتياجات على البيئة الطبيعية في المقام الأول. كانت وحدة الجغرافية (طبيعية وبشرية) وهو المفهوم الحديث للجغرافيا.

فشهد النصف الثاني من القرن العشرين تطوراً حيث إدخال التحليل الاحصائي والمعالجة الرياضية للمعلومات والبيانات الجغرافية. كما تم في هذه الفترة تطوراً ملموساً في أبحاث الفضاء، وصناعة الأقمار الصناعية التي يمكنها إرسال فريد من المعلومات عن الأرض، لا سيما تلك الاجزاء التي تقع في الأماكن النائية. وذلك باستخدام الاستشعار عن البعد Remote sensing وهي أدق ولا شك من وصف الرحالة والمستكشفين. فأصبح التطور الذي يمكن أن يطرأ على حقل الجغرافية الآن، هو تحقيق فريد من التقديم والازدهار وأكثر دقة.